قلعـــــة بني حماد
الحاضرة الاقتصادية والثقافية للمغرب الأوسط
خلال القرن 5هـ/11م

د. عبد العزيز فيلالي
جامعة منتوري – قسنطينة

قبل الحديث عن قلعة بن حماد كحاضرة اقتصادية وثقافية في المغرب الأوسط خلال القرن 5هـ/11م، يجدر بنا أن نعرج بصفة موجزة عن حدودها الإدارية، والأقاليم التابعة لها سياسيا وإداريا، حتى نتمكن من معرفة مجال تأثيرها، اقتصاديا وثقافيا، على الرغم من أن الحدود السياسية في العصر الوسيط غير ثابتة وغير مستقرة يتسع مجالها حينا ويتقلص أحيانا حسب استعداد الدولة وقوتها العسكرية.

والحقيقة الثابتة، أن المصادر التاريخية لهذه الدولة ضنينة وشحيحة، تكاد تكون منعدمة، يعاني الباحث من نقصها وندرتها، وأن هناك فراغا ملحوظا في المصادر المونوغرافية، التي تهتم بالدولة الحمادية ومدنها وخاصة عندما يحاول الباحث الحفر في البنى الاجتماعية، وفي النسيج العمراني والدورة الاقتصادية والحركة الفكرية والثقافية ومؤسساتها لأنها لم ترد في الكتب الأستغرافية التقليدية إلاّ بكيفية مختشمة، وهي ظاهرة خاصة بتاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

لقد بلغت حدود الدولة الحمادية، أقصى اتساع لها في القرن 5هـ/11م، بحيث وصلت جنوبا أطراف الصحراء، وشرقا إلى بلاد الجريد من الديار التونسية[1].

---

[1] ابن خلدون: العبر، بيروت، مؤسسة جمال، ج6، ص 301.
E. F Gautier: *Le passé de l'Afrique du Nord*, Paris, 1937, p. 325.

حينما تقلص نفوذ أبناء عمومتهم من الزيريين إلى أحواز المهدية، ومن الناحية الغربية إلى أطراف تلمسان.

كان المنصور بن بلكين (373-386هـ/983-993م) قد عقد لأخيه حماد بن بلكين على إقليم "أشير"، مع أخيه يطوفت وعمه أبي البهار، ثم استقل بالإقليم، أيام ابن أخيه باديس بن المنصور (386-406هـ/996-1015م)، الذي كلفه بحرب زناته في الجهة الغربية للدولة ، وتوسيع رقعه حكمه وأملاكه من هذه الناحية .[1]

فقد أسند الزيريون تسيير المغرب الأوسط البعيد عنهم نسبيا، والأقل تمدنا في نظرهم والأصعب إدارة إلى حماد بن بلكين.

فعظم عناءه بهذه المهمة، وكبر نفوذه بإثخان جراح زناتة وبانتصاراته عليها، فعبر عن طموحه السياسي والعسكري[2]. وبالتالي عرض السلطة المركزية إلى التصدع، وتمكن هذا الأخير شيئا فشيئا، أن يستقل عن القيروان إداريا وعزز استقلاله السياسي والمذهبي.[3]

ولعل السبب في ذلك يعود إلى الفراغ الذي تركته السلطة المركزية أحيانا على الصعيد الإقليمي، البعيد عنها نسبيا، فقد كان الأمراء يعينون الولاة ويطلقون أيديهم في الأقاليم دون أن يدعموهم بجهاز إداري كبير متحكم في الأمور، مما يتيح الفرصة إلى ظهور طموحات تخلق قوة موازية للسلطة المركزية ومضادة لها، وهذا ما حدث مع حماد بن بلكين.[4]

اختار حماد مكانا جديدا بالمعاضيد، واختط فيه مدينة القلعة بجبل كيَّانة سنة 398/1007م، وهو جبل عجيسة[5]، المتميز بمناعته وحصانته وسهولة الدفاع عنه،

---

[1] أنظر ابن عذاري: البيان المغرب، ط1، ص 315. الإستبصار في عجائب الامصار، تح، سعد زغلول عبد الحميد، الأسكندرية، منشورات كلية الآداب، 1956، ص 19.

[2] ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 227.

[3] أندري بريان وآخرون: الجزائر في الماضي والحاضر، ص 103.

[4] نفسه، ص 104.

[5] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 227.

حيث يوجد حصن قديم بقمة "تاقربوست"[1] ، يبعد جنوبا عن برج بوعريريج بنحو 31 كلم وعن مدينة لمسيلة بنحو 35 كلم.

ويطلق البكرى على الموضع الذي بني فيه قلعة بني حماد، بقلعة أبي طويل[2] التي تقع على حاشية المرتفعات التلية المسيطرة على سهوب الحضنة، وتقع على الطريق الرابط بين الشرق والغرب، الذي يتحكم في القوافل التجارية.[3]

والظاهر أن السبب الذي أختير من أجله موضع القلعة قربها من مدينة لمسيلة، الواقعة في أسفل المرتفعات، التي شيدت عليها القلعة من جهة، ولأن لمسيلة تشرف من جهة أخرى على طريق القوافـــل منذ العهد الفاطمي، ويؤكد هذا الترابط بين المدينتيـــن ما لاحظه الإدريسي، من أن المدينتين متجاورتين متكاملتين.[4]

قام حماد ببناء القلعة، وتشييد سورها بالحجارة، تتخلله ثلاثة أبواب هي باب الجنان، وباب جراوة، وباب الأقواص[5]، وقد انتهى من تعميرها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة للهجرة.[6]

نقل إليها حماد بن بلكين (405-419هـــ/1014-1028م)، الكثير من أهل لمسيلة ومن سكان مدينة حمزة (البويرة)، وعمرها بقبيلة جراوة، وأنزلهم جميعا بها[7]، وفي هذا الصدد يشير ابن خلدون: « وشيد بنياها وأسوارها واستكثر فيها المساجد، والفنادق، فاستبحرت في العمارة واتسعت في التمدن، ورحل إليها من الثغور القاصية،

---

(1) قربوس، بفتح القاف والراء، حنو السرج وله قربوسات، وهي كلمة عربية لا تزال مستعملة باصلها في الجزائر، ونقلت إلى الأمازيغية بزيادة الأحرف الثلاثة. أنظر، أحمد محمد أبو رزاق، الأدب في عصر بني حماد، س.و.ن.ت، الجزائر 1979 ص 74.

Beylié : *La Kalâa des Beni-Hammad, une capitale Berbère de l'Afrique du Nord au XI*.S, Paris 1909, pp. 40-50.

(2) المغرب، ص 49.

(3) بوناني الطاهر: التصوف في الجزائر، عين مليلة، دار الهدى، 2004، ص ص.90-91.

(4) وصف إفريقية الشمالية، تح حاج صادق، الجزائر، ص ص. 59-64.

(5) الإدريسي: ، ص ص. 59-64.

(6) ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 227.

(7) نفســـه، ج6، ص 227.

والبلد البعيد، طلاب العلم وأرباب الصنائع، لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها ».[1]

وظلت القلعة تستقبل الوافدين عليها من إفريقية والمغربين الوسط والأقصى، ومن الأندلس وصقلية، فانتقلت إليها من القيروان جالية كبيرة من السكان والتجار وأصحاب رؤوس الأموال والحرف وطلاب العلم سنة 405هـ/1014م ولاسيما أثناء الحرب الحمادية البادیسية. ثم ازداد عدد الهجرات بعد الغزو الهلالي للقيروان، وانتقل إليها أيضا أقوام من مدن زيرية أخرى[2]. وحوّل إليها من أهل تلمسان عدد كبير[3] من خاصة القوم، وجاءها مهاجرون من الأندلس فارين من الحرب الأهلية بقرطبة والمعروفة بـ "الفتنة البربرية" في نهاية المائة الرابعة[4]، والتي عاد من جرائها بعض أفراد عائلة زيري بن مناد وانتقل إليها بعض سكان صقلية، حينما سقطت في يد النورمان.[5]

فتطورت المدينة بسرعة، بفضل هذه العناصر الوافدة وبما تحمله من علم وثقافة، وحرف وصناعة ومال، حتى صارت القلعة « من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا، وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا، وأحسنها قصورا ومساكن وأعمرها فواكه وخصبا، وحنطتها رخيصة، ولحومها طيبة وسمينة وفلاحتها إذا أكثرت أغنت، وإذا قلت كفت، فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم صالحة ».[6]

---

[1] نفسه، ج 6، ص 227.

[2] نفسه، ج 6، ص 227.

[3] محمد طمار: الروابط الثقافية، ص 136.

[4] ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 227.

[5] القاضي عياض: الغنية، ص 89.

[6] الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 156.

فأصبحت سوقا كبيرا للقوافل، ومركزا صناعيا شهيرا للأقمشة، فكان يصنع فيها: « اللبابيد الجيّدة، والأكسية القلعية الصفيقة والنسج المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة والبصيص ما يترل مع الذهب بمترلة الإبريسم ».[1]

وكان بالقلعة معامل الخزف والزجاج، لأن أرض الدولة الحمادية ساحلية وتلية وصحراوية، بها المنتوج الزراعي المتنوع، والمادة الأولية الخام من طين ورمال، وبها حقول للفواكه والحبوب والزيتون والنخيل ويكثر بأرضها الأصواف والقطن والكتان، والأنعام من إبل وبقر وأغنام[2]، كما استفادت القلعة من اقتصاديات المدن والحواضر الدائرة في فلكها، وهي مراكز تجارية ومعابر حيوية لحركة التجارة بين المغرب والمشرق، وبين الشمال وجنوب الصحراء ببلاد السودان.[3]

فمدينة طبنة على سبيل المثال، كانت غنية بمحاصيلها الزراعية، تقع في مفترق الطرق الداخلية المؤدية بين الزاب والأوراس ونقطة عبور بين القيروان وسجلماسة، والمسيلة والقلعة.[4]

ومدينة لمسيلة هي الأخرى كانت في القرن 5هـ/11م منطقة زراعية، لأنواع متعددة من المزروعات، وتربية المواشي، ومركز عبور للطرق الثلاثة بين الشرق والصحراء والشمال، استفادت القلعة من اقتصادياتها استفادة كبيرة[5]، بتدعيمها للتجارة الداخلية بين المدن والريف.

---

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان، تح احسان عباس، بيروت، دار صادر، ج 4، ص ص. 163-164.

(2) الاستبصار، ص 58. الحموي المصدر السابق، ج 2، ص 164.

(3) موريس لمبار : الإسلام في مجده الأول، ص 221.

(4) الهادي روجي ادريس، بلاد البربر في العهد الزيري، ترجمة حمادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج2 ص 90.

(5) أنظر Allaoua Amara: *Pouvoir, économie et société dans le Maghreb hammadide*, Thèse de doctorat, Université Paris I Sorbonne, 2002, t 2, pp. 394-399.

وكانت ورجلان مرتبطة تجاريا ببلاد السودان، فكان تجارها يحملون إلى غانة ونقاوة منتوجات الشمال التي تصلهم بواسطة تجار قسنطينة والقلعة، ويعودون محملين بالذهب والعبيد وجلود الماعز المدبوغ والصمغ وغيرها من بضائع السودان.

وقد عبر أحد شعراء ورجلان قائـــــلا:

جزا الله ورجلان خير ما جـــرى به بلدا طالب الخير سائـــــــر

هو جنة الدنيا وأبواب مكـــــة ومعدن تبر غانة والدنانيـــــــر[1]

فقد استفادت القلعة التي أصبحت تهيمن على طريق الذهب بالمغرب الوسط، فصارت قطبا اقتصاديــا هاما وحاضرة تجارية حيوية عالمية، بعلاقاتها التجاريـــة والاقتصادية الواسطة مع الحواضر والأقطار العديدة، فقد وصفها البكري بأنها « مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب».[2]

وحسب البكري فإنها صارت حاضرة المغرب بدون منازع لسببين اثنين:

الأول: لأنها العاصمة السياسية لبني حماد

والثاني: لأنها تعد مركزا تجاريا عالميا، تجذب إليها القوافل من الشرق والغرب ومن الصحراء وبلاد السودان.[3]

وصفوة القول: فقد كان تجار القلعة ميسوري الحال، حسب كتب الجغرافية والرحالة، بسبب السلع القادمة من الشرق والغرب والجنوب، لأن القلعة ظلت محطة تجارية ذات شأن كبير في القرن 5هـــ/11م. إذ عادت عليها بثروة عظيمة، مما جعلها ترتقي فعلا إلى مرتبة العاصمة الثرية الآهلة بالسكان.

وكان عدد التجار الصغار في القلعة كبيرا، يقيمون في المدينة ويتعاطون التجارة في الأسواق وفي دكاكينهم، عبر الدروب والأحياء، وقد ينتقل بعضهم إلى

---

(1) ابراهيم بحاز: الدولة الرستمية، غرداية، المطبعة العربية، ص 222.

(2) المغرب، ص 49.

(3) نفســه، ص 49 ، موريس لمبار: المرجع السابق، ص 299.

المدن المجاورة والأسواق الأسبوعية والموسمية وإلى القرى والبوادي لشراء المنتوج الفلاحي من الفلاحين مباشرة.[1]

ومما يدل أيضا على كثرة الأموال عند بني حماد واكتناز الذهب والفضة من خلال التجارة والغنائم ما ذكره ابن عذارى، عندما تحدث عن هزيمة حماد بن بلكين أمام جيش باديس، وما تم اغتنامه من جيش حماد بعد المعركة، عبارة عن عشرة آلاف درقة (ترس)، وأموالا وأثقالا، وصناديق به خمسون ألف دينار، وسبعمائة من الورق وألف ألف وخمسمائة ألف درهم، ومن الأمتعة خمسون صندوقا غير ما كان في بيت حماد وخزائنه بالقلعة، كما وجدوا ببردعة بغل نحو ثمانية آلاف دينار.[2]

إذن فالقلعة كانت رواقا تجاريا هاما، وكانت دائرة تأثيرها التجاري والاقتصادي، يصل إلى المدن الداخلية الواقعة تحت نفوذها السياسي، وكانت الحرف والصناعات مختلفة ومتنوعة تعدّد معها أصحابها تميزوا بالنشاط والمهارة في إتقان صناعاتها ومنتوجاتهم الحرفية التقليدية في مصانع ومنازل قلعة بني حماد.[3]

ويمكن أن نضيف هنا في آخر المطاف، بأن العصور الوسطى كانت تتميز بنظام الطوائف المهنية المتخصصة، وهو تنظيم شعبي يعرف بنظام النقابات، أو الاتحاديات المهنية، تتجمع كل طائفة في مكان واحد، وتتسمى بنوع الحرفة أو التجارة التي تمارسها، لأن أصحاب الحرف هم تجار في نفس الوقت، ولهذا نجد الأسواق مقسمة بين هذه الطوائف مثل العطارين والإسكافيين والدباغين وغير ذلك، عبر أحياء المدينة وحاراتها ودروبها.[4]

كانت هذه التنظيمات المهنية في العهد الفاطمي، تتمتع بكثير من الحرية والرخاء، حيث كانت السلطة الإسماعيلية الفاطمية تعترف بها، وكانت رسائل إخوان

---

(1) ناصح محمد، المرجع السابق، ص 227.

(2) البيان المغرب، ج I، ص ص. 363-364.

(3) موريس لمبار: المرجع السابق، ص 233.

(4) كلود كوهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص 140.

الصفا تمجد العمل الذهني واليدوي وتركز عليهما[1]. وعلى الرغم من سكوت المصادر عن هذه التنظيمات في المغرب الأوسط، فلا يستبعد أن يكون تجار القلعة وحرفييها قد عرفوا هذه التنظيمات كغيرهم من التجار المسلمين في بلاد المشرق والمغرب، واستفادوا منه في تنظيم عملهم، ولاسيما وأن المنطقة حديثة العهد بالنظام الإسماعيلي الفاطمي، وكانت خاضعة له، وهو الأمر الذي يشجع على مثل هذه التنظيمات[2]. عكس ما هو سائد في بعض البلدان التي كانت تدين بالمذهب السني، فقد تتعرض هذه الطوائف أحيانا إلى الزجر وإلى الكثير من القيود والمراقبة الشديدة، نتيجة التشكك وسوء الظن في علاقات السلطة مع عالم الشغل، ولكن فيما يبدو أن هذه الروح لم تكن سائدة عند حكام القلعة.[3]

إن هذا التنظيم يجعل من نظرة المسلمين نظرة عالمية وأنه كان مفتوحا بمختلف التيارات والأجناس، في الوقت الذي كان فيه الغرب المسيحي يتمسك بعقائد جامدة ومغلقا على نفسه.[4]

لقد تعاون المسلمون والمسيحيون واليهود في تشكيل هذه المنظمات، وكانوا جميعا يتمتعون بالعضوية فيها على قدم المساواة، بل نجد غير المسلمين في بعض الحرف، يشكلون الأغلبية فيها ولاسيما في تنظيم مهنة الصياغة والصيرفة.[5]

الحيـــاة الفكريـــة:

استفادت قلعة بني حماد، من الدورة الاقتصادية الإيجابية، والرخاء الذي عاشه أهلها خلال القرن 5هـ/11م، فكان فال خير على المدينة، بحيث جاء العلماء والأدباء وطلاب العلم والمهندسون والأطباء والحرفيون والتجار من مختلف الأقاليـــم

---

(1) الرسالة، نشر خير الدين الزركلي، مصر 1928، ص 248.

(2) موريس لمبار: المرجع السابق، ص 233.

(3) موريس لمبار: الإسلام في مجده الأول، ص 233.

(4) نفســـه، ص 233.

(5) نفســـه، ص 233.

والأوطـــان –كما سبقت الإشارة إليه– مع المهاجرين الذين استطابوا العيش والمقام بها، من المدن التي سبقتها في الميدان العلمي والثقافي، مثل: لمسيلة وطبنة وبسكرة وتيهرت والقيروان وتلمسان وصقلية والأندلس.

وأن ازدهار العلوم في القلعة، وانتفاع سكانها بالعلم والمعرفة، يعود الفضل في ذلك إلى هؤلاء القادمين إليها علماء جاهزين، اختاروا القلعة مقرا لهم، لأنها أصبحت حاضرة سياسية لبني حماد، من جهة ولأنها وفرت لهم ما لم توفره غيرها، من مال واستقرار وأمن، ومنهم من جاءها عنوة سواء بواسطة التهجير الإجباري أو بواسطة ظروف الحرب واللاأمن أو من نقص الرخاء، أو لأن صنهاجة الحاكمة في حد ذاتها، بدأت تندمج في الوسط الثقافي وتشجعه، بعد تأسيس القلعة، فظهرت أسماء علمية منها تعود أصولها إلى اسرة بني حماد الحاكم، إلاّ أن صنهاجة اختصت في الحقل السياسي والإدارة والجيش اكثر من الحقل الثقافي. من بين علمائها:

- عبد الرحمـــن الصنهاجي.
- محمد بن على بن عيسى بن حماد الصنهاجي.
- القاسم بن النعمان بن الناصر بن علناس.[1]

وبرز من قبيلة جراوة التي أسكنها حماد بن بلكين عاصمته القلعة نحو ثلاثة أسماء ضربت بسهم وافر في ميدان الفقه والأدب هم:

- عبد الله بن محمد بن محمد الجراوي.
- محمد بن داود بن عطية الجراوي (ت 1130/525).
- يوسف الجزيري الجراوي (ت 1130/525).[2]

اعتنى بنوا حماد بالعاصمة الجديدة، ووفروا لها الحماية والاستقرار، وشيدوا بها المؤسسات التربوية والعلمية من كتاتيب ومساجد ومعاهد، وأغدقوا على العلماء

---

[1] أنظر البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، تح عبد الحميد حاجيات، الجزائر، المؤسسة الوطنية للطباب، 1982، ص 52.

[2] نفســـه: ص 52. أنظر Allaoua Amara: *op.cit*, p. 650.

والأدباء وأهل الرياضة والفنون بالصلات والجرايات، وقربوهم إلى بلاطهم وهيئوا لهم الجو المناسب لانطلاق الحركة الفكرية والعلمية بالمدينة الجديدة.

وكان أول ما استهل به حماد بن بلكين هذه الحركة، إلغاؤه للمذهب الشيعي، وطرد أصحابه ومتابعتهم حتى في إفريقية، وتحريض الفقهاء وعمال الأقاليم ضدهم، وتبنى المذهب المالكي الذي صار مذهب الدولة، فسر لذلك جميع الفقهاء ورجال الدين والشريعة، فتقاطروا على القلعة مهنئين مستبشرين بإعادة الاعتبار إلى مذهبهم[1]. وبالتالي أصبحت الدراسات الفقهية المالكية في القلعة إجبارية على الطلاب والدارسين، وصارت هي التخصص المفضل والأول في دراسة العلوم النقلية في قلعة بني حماد، ثم يأتي بعدها في المرتبة الثانية الأدب بنوعية النثري والشعري.[2]

أمّا أصول الفقه وعلم الكلام والحديث وعلم القراءات والتفسير، ودراسة اللغة العربية وفقهها، فإن مجالها غير واسع بين الطلاب والدارسين.[3]

ويبدو أن فئة العلماء والأدباء والفقهاء، كانت تمثل الفئة الرابعة في المجتمع القلعي، بعد الحكام ورجال السلطة ورجال صنهاجة.[4]

فقد أشار القاضي عياض إلى مجموعتين مميزتين من علماء قلعة بني حماد فالأولى تتكون من المهاجرين القادمين من القيروان عاصمة بني زيري وعلى رأسهم ابن النحوي التوزري (ت 513هـ/1119م) وعبد الجليل بن أبي بكر القيرواني (ت 469هـ/1076م) والثالث من جزيرة صقلية وهو: أبو عبد الله محمد بن أبي فرج المعروف بالقاضي (توفي بعد 500هـ/1106م). فقد دعم هؤلاء جميعا الدراسات الفقهية المالكية بالقلعة.[5]

---

[1] محمد طمار: المرجع السابق، ص 120.

[2] القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح أحمد بكير، بيروت، ج2، ص.ص 779-778 ، الذهبي: تاريخ الإسلام، ص 513.

[3] السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ص.ص 174-175.

[4] Allaoua Amara, *op.cit*, p. 643

[5] القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج2، ص 792.

أمّا المجموعة الثانية فتمثل المدرسة المالكية، فقد قام بتكوينهم العالم الفقيه عبد الرحيم بن أحمد الكتابي (ت 420هـ/1029م) وهو تلميذ قدم للفقيه أبي زيد القيرواني (ت 386هـ/996م)، قام عبد الرحيم بتدريس مجموعة من تلاميذ علم الفقه والحديث في قلعة بني حماد، وكونهم تكوينا جيدا حتى أصبحوا من مشايخ القلعة ومن علمائها نذكر منهم على سبيل المثال:

- أبو عثمان بن أبي صور.[1]
- أبو عثمان بن أبي شولب.[2]
- أبو حفص عمار بن أبي الحسين.[3]

وقد رجعت لهذا الأخير رئاسة المدرسة المالكية في قلعة بني حماد في نهاية القرن 5هـ/11م.[4] فقد أعطيت المدرسة المالكية في المغرب الأوسط وكونت العديد من الموظفين، الذين استعانت بهم السلطة الحمادية في القلعة.

وهكذا بدأت الدراسات الفقهية المالكية في علم الحديث والقراءات والتفسير وعلم الكلام والفلسفة وعلوم الطبيعة والرياضيات والطب، وهي العلوم والمواد الدراسية التي وجدت مكانا في مساجد القلعة ومعاهدها، وكذلك أخذت الدراسات اللغوية والأدبية من نثر وشعر وعلم التصوف، تنتشر وبكيفية اضطرارية، وهي العلوم التي أصبحت أساسية لطلاب قلعة بني حماد.[5]

بلغت القلعة شوطا كبيرا في مجال التعليم والتكوين في عهد كل من الناصر بن علناس (456-481هـ/1064-1088م)، الذي كان محبا للعلم مشجعا لأهله ومصطفيا لهم[6]. وحذا حذوه ابنه المنصور (481-498هـ/1088-1104م)، وتفوق

---

(1) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج2، ص 778.

(2) نفسه، ج2، ص 779.

(3) نفسه، ج2، ص 778.

(4) نفسه، ج2، ص 778.

(5) Allaoua Amara, *op.cit*, T2, p. 65.

(6) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 231.

عليه في مجال البناء والتشييد، إذ كان هذا الأمير مولعا بالبناء وجمع العلماء حتى اعتبره المؤرخـــون، هو الذي أخرج الدولة من طور البداوة إلى طور الحضارة بحيث طور نظام الحكم، ونقل دولته نقلة حضارية نوعية، جعلتهم في مصاف الدول الكبيرة في المنطقة، بحيث تأنق في إختطاط المباني، وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين.

فبنى في القلعة قصر الملك وقصر المنار وقصر الكوكب وقصر السلام، وجعل فيها مجالس علمية للمناظرة والمحاورة في المسائل الفقهية والأدبية بين الشعراء والفقهاء وكبار علماء القلعة آنذاك.

قدم عليه معز الدولة بن صمادح من المرية بالأندلس هاربا من المرابطين ومعه الخدم والحشم وجمهور من العلماء والشعراء، فرحب بهم العاهل الحمادي وأسكنهم مقاطعة "دلس" التي عيّن معز الدولة حاكما عليها.[1]

فقد رصدت لنا كتب الطبقات والتراجم والمناقب ما يزيد عن 234 عالما وفقيها وأديبا، وهم مجمل علماء الدولة الحمادية، ينتمون جغرافيا إلى عدة مناطق ومدن، تابعة للنفوذ الحمادي، ومن الأندلس أيضا وإفريقية والمغرب الأقصى وصقلية وبلاد المشرق[2]. أغلبهم يعتنقون المذهب المالكي وقليل منهم ينتمون إلى مذهب المعتزلة والشافعية والحنفية ومن الإباضية والظاهرية[3]. وهذا يدل في حد ذاته على أن حرية المعتقد المذهبي في القلعة كان سائدا، يوجد من بين هذا العدد الكبير من العلماء نحو خمسين (50) عالما وفقيها، من أهل قلعة بني حماد وحدها[4]. وهو رقم يمكن أن يكون معتبرا، إذا عرفنا أن عمر القلعة كحاضرة سياسية نحو نصف قرن من الزمن.

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج2، ص 234.

(2) A. Allaoua, *op.cit*, t 2, p. 652.

(3) *Ibid*. t 2, p. 654.

(4) بلغ عدد علماء بجاية 74 عالما وورجلان 18 عالما والجزائر 13 عالما ومسيلة 08 علماء وقسنطينة 07 علماء وعنابة 06 علماء. *Ibid*.

وكان الفقهاء يشكلون الأغلبية في هذا الرقم، لأن الدراسات الفقهية تعد أسهل من العلوم الأخرى، ولا تحتاج إلى وقت وعناء كبيرين من قبل الدارسين، ولأن العلوم الفقهية توفر لدارسها المناصب الإدارية وفي مهنة التدريس والإمامة والخطابة والقضاء والحسبة، بينما يأتي عدد الأدباء والشعراء في المرتبة الثانية من حيث العدد.

أمّا علماء أصول الفقه والحديث والتفسير وفقه اللغة[1]، فإن عدد الدارسين فيها قليل لأنها تحتاج إلى ثقافة موسوعية وجهد كبير ووقت أطول للتطلع فيها، ولهذا فإنها تأتي في المراتب الثانية للفقهاء والأدباء من حيث العدد والكم وقد ظهر في القلعة من الكتاب عدد كبير منهم:

- أبو بكر بن حيذرا.
- أبو بكر بن الفتوح.
- أبو الكريم بن سليمان.
- أبو القاسم بن عبد الرحمـــن النفطي.

فقد كان هؤلاء جميعا يتولون مناصب وزارية وحجابة.

أما من تولوا مناصب قضائية نذكر منهم:

- ميمون التميمي القلعي.
- محمد بن علي بن الطاهر القيسي.
- أبو عبد الله بن داود.

ومنهم من تولى مناصب أخرى كمدلك للأمير، ومفتي السلطة، ومنهم من أسندت إليه قيادة الجيوش.[2]

وظهر في القلعة من الزهاد، أبو القاسم بن مالك (ت النصف الثاني من القرن5هـــ) وكان له تلاميذ كثيرون يلتفون حول حلقته يوميا، أشتهر بالزهد والورع

(1) A. Allaoua, *op.cit*, T2, p. 674.

(2) أنظر Allaoua Amara, *op.cit*, T2, pp. 672-680.

والتعفف من عطايا الأمراء والسلاطين، كما كان يهرب من المكانة التي كان ملوك القلعة يخصونه بها ويتحرج منها.[1]

وبرز نموذج آخر من الزهاد، الشاعر الأديب أبو عبد الله محمد بن الحسين القلعي (ت 673هـ/1275م)، الذي اشتهر بالزهد في الدنيا، وكان بكاءا سخي الدمع غزيره، ومن أقواله في التخلي عن الدنيا:

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا

أن المقام بها كاللمح بالبصر

وأنشد أبياتا أخرى تخص يوم الآخرة، وما ينتظر الإنسان من حساب[2]، ذكره الغبريني في عنوان الدراية، بأنه جمع حوله المريدين والاتباع[3]، وظهر في قلعة بني حماد من رجال التصوف العديد، نذكر على سبيل المثال: أبو عبد الله بن عمر بن عبادة القلعي (ت 669هـ/1270م)، و أبو عبد الله بن الحسيني القلعي (ت 673هـ/1275م). ومن الذين تمسكوا بالتيار السني، وبمذهب الغزالي في التصوف، وتبنوا أفكاره القائمة على الالتزام بالقرآن والسنة، والتركيز على تصفية النفس، وتجريدها من البدع، بواسطة المجاهدة والرياضة والقيام والخلوة، نجد على رأسهم الفقيه العالم المتصوف أبو الفضل النحوي (ت 513هـ/1119م).[4]

قام بنشر نظرية الغزالي في قلعة بني حماد، بعد أن استقر فيها، وبدأ تطبيقها على نفسه، بحيث إلتزم بالقيام والصيام والتهجد، اتخذ أخلاق السلف الصالح، له كرامات ذكرها ابن الزيات وابن قنفذ القسنطيني.[5]

---

(1) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج2، ص 628.

(2) الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر، ص 105.

(3) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة في بجاية، تح رابح بونار، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 94.

(4) التنكتي: كفاية المحتاج، ص 792.

(5) التشوف، ص 75 ، ابن قنفذ: انس الفقير، ص 108.

كان أبو الفضل متأثرا كثيرا بالغزالي، ولذلك كان يدافع عن أفكاره ويناصرها، وينشر كتبه حيثما وصل وحلّ، ولما أفتى فقهاء الأندلس وعلى رأسهم ابن حمدين، ومن مشى في طريقهم من علماء المغرب، بإحراق كتاب الإحياء ثار ضدهم، وكتب للأمير علي بن يوسف بن تاشفين (500-537هـ/1106-1142م) برأيه في الموضوع، وأفتى بعدم لزوم تلك الإيمان، وقام بنسخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءا على عدد أيام رمضان.[1]

انتصب للتدريس في قلعة بني حماد والإقراء بمساجدها، فأفاد الطلاب وأهل المدينة بعلمه المتعدد الجوانب، فدرس عليه جمهور من أعلام الحلقة، منهم القاضي أبو عمران موسى الصنهاجي، وأبو عبد الله بن الرمامة الفقيه القلعي، الذي أسندت إليه رئاسة الإفتاء في مدينة فاس[2]، ومنهم الإخوان الفقيهان: أبو بكر بن مخلوف بن خلق الله، و محمد بن مخلوف بن خلق الله وغيرهم.[3]

وهكذا ظلت القلعة حاضرة للعلم والثقافة، وقبله للطلبة والدارسين وحملة العلم من المشرق والمغرب ومن الأندلس -كما أسلفنا- وسوقا تجاريا عامرا بالقوافل من مختلف الأصقاع، إلى أن حلت إلى أقاليمها وأحوازها قبائل بني هلال الذين ضيقوا عليها واحتلوا طرق التجارة المؤدية إليها، وخروج السلطة المركزية منها وانتقالها إلى الحاضرة الجديدة على الشواطئ، وهي مدينة بجاية، مما جعل أهمية القلعة الاقتصادي والثقافي تنتقل شيئا فشيئا إلى العاصمة الحمادية الجديدة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.

---

[1] رابح بونار: المغرب العربي، ص.ص 269-270.

[2] الطاهر بونابي: المرجع السابق، ص 117.

[3] رابح بونار: المرجع السابق، ص 271.